أنت واليهود: من في حضن من؟

أومأ أشرف بركات برأسه فى اتجاه الباب المغلق، والتفت إلى سامى شرف قائلًا:

ـ «الولد فى الصالة، جئنا به ليكتب اعتذارًا وتنازلًا عن شكواه..»

لم يأبه سامى شرف بهذا الخبر، وراح يكمل ترحيبه بحلمى عبد الباقى، ثم راق له أن يتحدث معه حول مقاله الأخير وما قاله عن خطاب الرئيس فى افتتاح دورة الانعقاد الخامسة لمجلس الأمة، فابتسم حلمى بدمائة وقال له:

ـ «دعنى أحدثك حول مالم أكتبه فى مقالى، فقد تعجبت أن يدلى الرئيس فى هذا الخطاب بتفاصيل خسائرنا فى معركة يونيه: ٨٠٪ من المعدات، ١٠٠٠٠ جندى شهيد، ١٥٠٠ ضابط، ٥٠٠٠ جندى أسير ٥٠٠ ضابط أسير، ألا يخشى الرئيس من إحباط معنويات شعبه؟»

«فقال سامى شرف»:

«رجل يطلب من الناس الاحتشاد والاستعداد للثأر، فهل من المعقول أن يهوّن من المصيبة التى يحشدهم من أجلها»

وتدخل أشرف بركات قائلًا:

ـ «وهذا فى حد ذاته نوع من التعبئة، بجانب رفعه للحراسات، والإفراج عن الإخوان، وتنظيف المخابرات، وتطهير لجان تصفية الإقطاع، ومعالجة انحرافات القطاع العام.. الرجل يرتب البيت من الداخل يا جماعة»

عاد حلمى إلى حديثه الأول، فقال لسامى شرف:

ـ «أفكر أن يكون مقالى القادم حول مناقشة السؤال الذى طرحة الرئيس فى خطابه»:

«كيف استطاع ٥ , ٢ مليون يهودى هزيمة ١٠٠ مليون عربى؟»

هتف أشرف بركات:

ـ «يا حلمى.. يا حلمى.. الجواب باين من عنوانه.. اليهود ليسوا وحدهم.. اليهود معهم نصف العرب.. السعوديه قامت بالواجب وأجهضت جيشك فى اليمن قبل المعركة.. هل هذه صدفه؟.. ألا تعلم أن الملك «حسين» زائر سرى دائم لإسرائيل. والملك الحسن يدين بالولاء لهم؛ لأنهم أعادوا والده إلى العرش»؟

أطرق حلمى عبد الباقى مهمومًا، وتساءل بصوت خافت:

«حرام.. حرام عليهم.. لماذا يخذلون هذا الرجل.. وبهذه الطريقة؟»

فهتف أشرف بركات مرة أخرى:

«يا حلمى.. يا حلمى.. نصف العرب يخشون منك، فلو ركبت اليهود فسوف تركبهم بعد ذلك.. أنت بالنسبة لهم فرعون الذى طرد اليهود فى العصر القديم.. كلاهما يخافك.. ويستقوى بالآخر ضدك سرًّا.. وسوف يعملون فى العلن بعد ذلك لتمزيقك إلى أشلاء»

ابتسم سامى شرف موجهًا حديثه إلى حلمى:

ـ «لا أعتقد يا حلمى أنك ستجرؤ على أن تضع كل ملاحظات أشرف فى مقالك»

وأيده حلمى قائلًا: «نحن نحافظ على القدر القليل من التماسك العربى ولسنا بحاجة لفتح معارك جديدة معهم.»

وقال أشرف بركات:

ـ «فعلًا.. ما يعجبنى فى الرئيس أنه يضع المأثورات الشعبية فى سياسته»

نظر إليه سامى شرف بذهول:

ـ «مأثورات شعبية؟.. أنا مع سيادة الرئيس ليل نهار ولم أسمع منه مثل هذه العبارة..»

ـ «ليس من المهم أن يقولها... الفعل نفسه يدل على ذلك... فمثلًا أنا وأنت على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب مثل شعبى يتم تنفيذه الآن ولو تأملت صيحته التى تقول: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فسوف تجد ذلك فى المثل الشعبى: «الطلب الهيّن يضيع الحق البيّن».. نحن شعب يملك تراثًا من الحكم لو أخذنا بها فى السياسة لاختلف

الأمر»

وصمت أشرف بركات قليلًا وهو يستعد لقول جديد:

ـ «سأذكركما بمثل بسيط يقول «العصا السابقة.. سابقة..» فلو أخذنا بهذا المثل وقمنا بتوجيه الضربة الأولى إلى إسرائيل فى يونيه لاختلف الأمر، ولكن عصاهم سبقت عصاتنا، فحدث لنا ما حدث»

ابت سم حلمى عبد الباقى وهو يتأمل أشرف بركات:

ـ «حبك للقرية.. والفلاحين.. وثقافة البيئة شىء جميل لا يملك المرء إلا أن يحمده لك يا أشرف.. فعلًا كل ما قلته الآن كلام مقنع، بل إنه موضوع شيق للبحث..»

بادله أشرف الابتسامة، وانبرى لمزيد من التدليل والتوضيح:

ـ «وتأكيدًا لقولك سأذكرك بما يحدث هذه الأيام.. ألا ترى أن هناك دعوة تعلن لأول مرة قوامها اعرف «عدوك» هذه الدعوه قالها أجدادنا بشكل آخر «اللى تخاف منه خليه فى حضنك» يعنى اقترب منه.. وحاوره.. لتفهم نواياه، وتتقى شره..»

هز سامى شرف رأسه فى تعجب، وسأله أشرف بركات:

ـ «فى جلساتك الحميمة مع الرئيس.. هل تطرح أمامه هذه الأفكار؟»

ضحك أشرف طويلًا، وقال لسامى:

ـ «يا سامى.. يا سامى.. الرجل يزورنى ليستمتع ببعض وقته عندى ويهرب من الهموم.. هل تريدنى أن أحدثه فى السياسة لأزيده همًّا؟»

فقال سامى بهدوء:

ـ «على كل حال يمكنك أن تضع أمامه كل أمثلتك ما عدا هذا المثل الأخير.. فهو مثل انهزامى لا يتمشى مع طبيعة عبد الناصر..»

فهتف أشرف بركات:

ـ «لماذا؟.. لماذا؟.. السياسة هى فعل الممكن يا جماعة . يعنى هذا الولد الذى سبّب لنا القلق وكان ينوى فعل المزيد منه.. ماذا فعلت معه؟.. أخذته فى حضنى.. وها هو يجلس فى انتظار التوقيع على التنازل.. ولو ضربه حلمى بالحذاء بعد ذلك فلن يرفع عينه ناحيته»

لم يجد سامى شرف ما يقوله، فهز رأسه أسفًا وضغط على جرس الاستدعاء، جاء أحد الموظفين فقال له وهو يشير إلى الباب:

ـ «الشاب الجالس فى الخارج .. سوف يكتب تنازلًا عن شكواه بخط يده على ظاهر الشكوى.. اجلس..»

قاطعه أشرف بركات:

ـ «لو سمحت يا سيد أشرف.. دعنى أكتب الصياغة بنفسى، وينقلها هذا الولد حرفًا حرفًا.. لى هدف أن أسد عليه كل الطرق الممكنة فيما لو فكّر فى ألاعيب أخرى»

أكمل سامى شرف حديثه مع موظفه:

ـ «إذن، خذ الصياغة من السيد أشرف واجعله ينقلها بخط يده..»

ونهض من خلف مكتبه وهو يتأبط عددًا من الملفات:

ـ «أستأذنكما.. موعدى حان مع السيد الرئيس.. وعلى فكرة يا سيد حلمى سيادة الرئيس كتب تأشيرة على مذكرتنا بشأنك للخارجية وترك لها مسألة تحديد المكان اللائق بك.. مبروك»

* * *

نظر الرئيس إلى ساعته لحظة دخول رجله الأثير سامى شرف، ففهم سامى على الفور أنه تأخر بضع دقائق، فبادر بالقول:

ـ «آسف يا فندم.. أشرف بركات وحلمى عبد الباقى أخذا راحتهما فى ضيافتى»

ابتسم عبد الناصر، وأطل نحوه فى اهتمام:

ـ «كيف حالهما؟.. أجّلت زيارتى مضطرًّا إلى أشرف الأسبوع الماضى..»

ـ «ليتك يا فندم لا تؤجل هذا الموعد.. السيد أشرف يحبك ويحرص على إبعاد الهموم عنك، رغم قلق الهانم من نوع الأصناف التى تناولتها عنده، وتتمنى ألا تكون خارج تعليمات الأطباء»

تفحصه عبد الناصر بنظراته:

ـ «وهل أبلغتك الهانم بمخاوفها؟»

ـ «الحقيقة.. نعم.. هى قلقة بعض الشىء..»

تنهد عبد الناصر وأسند ظهره إلى المقعد وهو يتأمل رجله المخلص:

ـ «أليس من الظلم يا سامى أن أعيش فى هذا الحصار؟.. رجل يطالب بالحرية لكل الشعوب ويطلب الاستقلال لمنطقة بكاملها، وتكون لديه إشكالية فى حريته الخاصة حتى فى نوع الطعام الذى يتناوله عند صديقه؟»

رد سامى شرف بشكل فورى:

«زعيم مثلك يا فندم يصنع التاريخ لابد أن نخاف عليه»

ضحك عبد الناصر ضحكة مفاجئة:

ـ «أنت تقول يصنع التاريخ.. والنكسة ألهمت الظرفاء بقول آخر هو أننى أغير الجغرافيا.. هل رأيت مدى قسوة هذه الحقيقة، أنا فعلا غيرت الجغرافيا.. سيناء الآن بيد اليهود.. هذا الشعب لن يرحمنى حتى أستعيدها له»

ـ «وسنعيدها يا فندم بإذن الله»

ـ «ليس بالسهوله التى قلتها الآن.. أنت لا تتعامل مع جنرالات اليهود فقط.. فالجنرالات خاضعون للحاخامات الذين يحرمون إعادة أى أراضٍ يستولون عليها.. هكذا أغلقوا الموضوع على أنفسهم وليس علينا فقط»

ـ «يا فندم سنواجه سلاحهم بسلاح، وعقيدتهم بعقيدة، ولؤمهم بلؤم»

تأمله عبد الناصر قليلًا:

ـ «أى لؤم تقصده، لم أسمع منك مثل هذا الكلام من قبل»

تلجلج سامى شرف لحظيًّا، ثم تخلص من حرجه قائلًا:

ـ «هكذا كان يتحدث السيد أشرف بركات عندى حالًا، وأتى من الأمثلة الشعبية بمثل يقول «اللى تخاف منه خليه فى حضنك.. وهذا نوع من اللؤم المطلوب»

هتف عبد الناصر على الفور:

ـ «غبى.. المثل ليس هكذا.. المثل يقول.. «خليك فى حضنه».. فكيف نضع أنفسنا فى حضن اليهود.. ما هذا التهريج؟»

ولكن سامى شرف كان له اهتمام آخر:

ـ «لا يهمنى صحة المثل يا فندم من عدمه.. ما يهمنى هو نوع تفكير أحد رجالك..»

فهم عبد الناصر ما يصبو إليه رجله:

ـ «لا تكبّر الموضوع.. أشرف بركات رجل له حدوده ومطامعه الصغيرة، الفيلا والسيارة والسائق والملابس الأنيقة.. وكلها مظاهر تعويضية عن أيام الفقر التى عاشها وما زال يحدثنى عنها ـ حتى اليوم ـ بسخرية توجع بطنى من كثرة الضحك.. لا تخشى جانبه..»

ـ «إنه يتحدث يا فندم عن أحضان مع اليهود»

تأمل عبد الناصر وجه سامى المنزعج كطفل:

ـ «يا سامى.. الذى على الشط عوّام.. لكنه لو كان غارقًا فى الماء مثلى لما جرؤ على مثل هذا التفكير، فأين سيذهب من الشعب؟ خلاص يا سامى الناس فهموا الفرق بين الحرب والمعركة، والفرق بين السلام والاستسلام، والفرق بين الشراكة والتبعية، ولن يأتى بعدى من يسّوق لهم الاستسلام فى شكل سلام، أو التبعية فى شكل شراكة، أو ينسحب من الحرب لمجرد الانكسار فى معركة»

ومد الرئيس يده فالتقط علبة سجائره:

ـ «عمومًا.. هات ما عندك.. ولا تنس أن تبلغ أشرف أننى سأزوره مساء الخميس بلا ضجة كالعادة..»

فقال سامى بصوت خفيض:

ـ «وأنا أرجوك يا فندم..»

وقبل أن يكمل جملته قاطعه الرئيس:

ـ «أعرف رجاءك.. لا تخش شيئًا.. لن أفاتحه فى موضوع حضن اليهود.. سأتناسى هذا الذى سمعته»